

السجع الجاهلي رؤى وأبعاد هو فن من فنون النثر يعتمد مجموعة من الجمل المتزادفة والمتوافقة والمترابطة يستخدمها الكاهن الذي يدعى معرفة الغيب في قضية من القضايا التي تتعارض فرداً أو جماعة ويُزعم هذا الكاهن أنه ينطق باسم الآلهة ، وأن الجن مسخرة له يحركها كيفما أراد ، وكانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب، وتعتبر ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعاً من الجن، وكان واحداً يسمى كاهناً كما يسمى تابعه الذي يوحى إليه باسم "الرئيسي" وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم؛ وقد يتخذونهم حاكاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف، واحتكم لهم إلى الكاهن الخذاعي، وقد نفر هاشماً على أمية. وكانوا يشierenونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شؤونهم كوفاء زوجة، أو قعود عن نصرة أحلاف، ففي أخباربني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رقّ لهم؛ فبعثت في إثرب فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، فقال لبني أسد: "يا عبادي، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لو لا أن تجيئ نفس جاشية، فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عكر حجر فهمجوا على قبته" وقتلوه. وكثيراً ما كانوا يندرون قبائلهم بوقوع غزو غير متظر، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم. فمنزلة كاهنهم في الجاهلية كانت كبيرة؛ إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها، ومن ثم كان العرب يقصدون كثريين منهم من مناطق بعيدة. ومما يلاحظ أنهم كانوا يتکثرون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب، وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثريين منهم، فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطح بن ربعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى ججمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق، ومن كاهنهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدؤسي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، كاهن بني الحارث بن كعب، وكان يقول: إنه أسلم بمشورة تابعه "شصار". ومن قوله: "والأرض والسماء، لقد نفر المجد بني العشاء للمجد والسناء(ونجد بجانب هؤلاء الكاهن جماعة من الكاهنات، وبما كان في الأصل من النساء اللائي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها. ومن أشهرها الشعثاء وكاهنة ذي الخلصة والكافنة السعدية والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء كاهنة بنى رئام، وبروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق والصبح الشارق والنجم الطارق والمزن الواقع، إن شجر الوادي ليأدو ختلاً، وبحرق أياماً عصلاً، وإن صخر الطود ليذر ثكلاً، ومعنى ذلك أنه وجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكاهن، وقد احتلّ الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم؛ فقرنوه بسجع كهنتهم ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جل وعز: {ولا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} وقال سبحانه وتعالى: {فَنَذَرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ} وقال: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلٍ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}. وما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون؛ الحديث المروي عن أبي هريرة؛ فقد حدث أنه: "افتلت امرأتان من هذيل؛ فرمتا إحداهما الأخرى بحجر، فاختصمنا إلى رسول الله، فقضى رسول الله أن دية جنinya غرة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها... فقال حمل بن النابغة الهذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولاأكل ولا نطق ولا استهل، صلى الله عليه وسلم: إنما هذا من إخوان الكاهن، من أجل سجعه الذي سجع ومن ثم كان من أهم ما يميز أصحابهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأنيل. وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم؛ فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكوكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية، ومن أجل ذلك يختلفون بها، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنين. وهذا السجع الديني كان يقابلة، سجع آخر في خطابتهم بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم. وكانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعى التنبؤ ومعرفة المغيبات، وأنها تتنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع، أما تابعه من الجن فيسمى رئا، وكانوا يفزعون إليهم لاستشارتهم في الأمور الجلى كإعلان حرب، أو قعود عن نصرة أحلاف، أو خلال بندر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداؤه . وقد يلجأون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة ، مماثلين لأحكامهم فهي لا تنقض ولا ترد، وقد يطلبون إليهم تعبير رؤاهم وأحلامهم ، وهم بدورهم قد يتبنّون لأقوامهم بوقوع كارثة، ولعل في ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية، فكثيراً ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهنته، فتصدّه العرب من أقاليم نائية، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن جمهور كاهنهم كانوا يمنيين، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلي، وشق بن مصعب الأنماري، وإليهما فزع نصر بن ربعة ملك اليمن في تفسير رؤيا له ، ورواية الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال، فقالوا: إن سطحيا لم يكن فيه عظم سوى ججمته، وإن وجهه كان في صدره ولم يكن له عتق، أما شق قالوا: إنه كان شق أو نصف إنسان له عين واحدة، ومن كاهنهم

المشهورين المأمور الحارثي، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رئيشه شscar ، وعوف بن ربعة الأسدية، وهو الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتله ، وسلمة الخزاعي الذي تناقر إليه هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس فنفر هاشما ، وسجاد بن قارب الدوسى، ووجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نسوة عرفن بالتكهن من مثل الشعفاء الكاهنة ، والكافحة السعدية والزرقاء بنت زهير، وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان، وما نشك في أن أكثر ما روی عنهم مصنوع، وإن من الخطأ أن يعتمد باحث على تلك المرويات، ويظنه صحيحة النسبة إلى من قيلت على ألسنتهم، ومن مصعب أن نحتفظ بها ذاكرة الرواية نحو قرنين من الزمان أو أكثر، حتى يخرج العصر العباسي فيدونها اللغويين والإخباريون. على أننا نستطيع بعد أن نرفض ما يروي من أقوالهم، وخطبهم أن نعود فنظن ظناً أنهم كانوا يسجعون في خطابتهم، وإلا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الأقوال، والخطب أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كهانتهم، ومن ثم صاغوا ما نسبوه إليهم من كلام سجعا خالصا. ولعل هذا السجع في كلامهم هو الذي دفع بعض المشركين من قريش إلى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن، فقال جل وعز ينقض دعواهم الباطلة : { فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِعْنَمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ } [] وقال: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقَوْلٍ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } [] ، وقد جاء في الحديث النبوى أن الرسول صلوات الله عليه قضى على رجل في جنين قتلت أمه بدية، فقال الرجل: "أدى "أغراهم" من لا شرب ولاأكل، أليس مثل ذلك يطل؟ فقال رسول الله عليه السلام: "إنما هذا من إخوان الكهان، من أجل سجعه الذي سجع" ، وفي رواية أنه قال له: أسجع كسجع الكهان؟ وفي هذا الحديث أكبر الدلالة، وأعظمها على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع في كهانتهم، ويقول الجاحظ: "كان حازى "akahen" جهينة، وشق وسطريح وعزى سلمة، ويروى من سجع عزى سلمة قوله: "والأرض والسماء، لقد نفر المجد بني العشراء، وإذا صحت هذه الكلمة لعزى سلمة، فإنها ترينا أن الكهان كانوا يستخدمون في كهانتهم على السجع، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام، وما يتصل بذلك من القمر والنجوم، وكل ما يظنون أنه يحمل قوى خفية، وأيضاً فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب في ألفاظهم للإيهام، وهذه هي نفس السمات العامة التي يمكن أن تستتبعها من خلال النصوص الكثيرة التي رويت من سجعهم، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمة، إذ كانوا يلجمون إلى الإيهام في أحدياتهم وأقوالهم، واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم في أساليبهم، وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تنبئهم معانيهم وتغمض دلالاتهم، فيكثر عند السامعين الفهم، ولعلنا لا نبعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون سجعهم في كثير من جوانبه على الرمز، فإن كهانتهم كانت تقتضي أن يختاروا ألفاظاً موهمة توهم بما يريدون دون أن تفصح -في كثير من أحوالها- عن دلالة بينه، ومهما يكن فإن حرقة الكهان في هذا العصر أثمرت ضرباً طريفاً من السجع كان يتكئ على الأقسام، وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان، وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم، إنما هو شظايا متاثرة من صناعة بليغة كانت تستفيد من أصحابها آماداً واسعة من التعب، ولقد كانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعى التنبؤ ومعرفة المغيبات، وأنها تتنطق عن آهتم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السمع، أما تابعه من الجن فيسمى رئيا، وكانوا يفزعون إليهم لاستشارتهم في الأمور الجلى كإعلان حرب ، أو قعود عن نصرة أحلاف ، أو كشف قتل إنسان أو ناقة ، أو خلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداؤه . وقد يلجمون إليهم الحكم بينهم أو للمنافرة ، ممتهلين لأحكامهم فهي لا تنقض ولا ترد، وقد يطلبون إليهم تعبير رؤاهم وأحلامهم ، وهم بدورهم قد يتبعون لأقوامهم بوقوع كارثة، ولعل في ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية، فكثيراً ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهانته، فتقصده العرب من أقاليم نائية، ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن جمهرة كهانهم كانوا يمنيين، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلي، وشق بن مصعب الأنماري، وإليهما فرع نصر بن ربعة ملك اليمين في تفسير رؤيا له، ورواية الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال، فقالوا: إن سطحها لم يكن فيه عظم سوى جمجمته، وإن وجهه كان في صدره ولم يكن له عتق، أما شق فقالوا: إنه كان شق أو نصف إنسان له عين واحدة، ومن كهانهم المشهورين المأمور الحارثي، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رئيشه شscar ، وعوف بن ربعة الأسدية، وهو الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتله⁵، وسلمة الخزاعي الذي تناقر إليه هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس فنفر هاشما، وسجاد بن قارب الدوسى، ووجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نسوة عرفن بالتكهن من مثل الشعفاء الكاهنة ، والكافحة السعدية والزرقاء بنت زهير، وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان، وما نشك في أن أكثر ما روی عنهم مصنوع، ويقول الجاحظ: "كان حازى "akahen" جهينة، وشق وسطريح وعزى سلمة، ويروى من سجع عزى سلمة قوله: "والأرض والسماء، لقد نفر المجد بني

العشراء، وإذا صحت هذه الكلمة لعزى سلمة، فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون في كهانتهم على السجع، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام، وما يتصل بذلك من القمر والنجوم، وكل ما يظنون أنه يحمل قوى خفية، وأيضاً فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب في ألفاظهم للإيهام، وهذه هي نفس السمات العامة التي يمكن أن تستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التي رويت من سجعهم، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمة، إذ كانوا يلجؤون إلى الإيهام في أحاديثهم وأقوالهم، ولللهذه الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم في أسلوبهم، وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تتبه معاينهم وتغمض دلالاتهم، فيكثر عند السامعين الفهم، ولعلنا لا نبعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون سجعهم في كثير من جوانبه على الرمز، فإن كهانتهم كانت تقتنصي أن يختاروا ألفاظاً موهمة توعظ بما يريدون دون أن تفصح - في كثير من أحوالها - عن دلالة بيته، ومهما يكن فإن حرقة الكهان في هذا العصر أثمرت ضرباً طريفاً من السجع كان يتكئ على الأقسام، وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان، وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم، إنما هو شظايا متباشرة من صناعة بلية كانت تستفيد من أصحابها آماداً واسعة من التعب، وكانت الكهانة موجودة عند العرب في الجاهلية، إذ كانوا يوهمون العامة بأنهم يعرفون الغيب عن طريق ما يتلقون من الجن، ويستشرونهم في أمورهم وبخاصة المستقبلة. ويقصون عليهم أحلامهم لكي يفسروها لهم. وأحياناً كان الكهان يندرون بعض القوم بأحداث تقع لهم. ولم تكن الكهانة مقصورة على الرجال، ومن أشهر الكهان: شق أنمار. وتحكي الأساطير عن خلقته أنه كان شق إنسان له عين واحدة. ومنهم سطيح الذئبي : ويقولون عنه إنه لم يكن فيه عظم سوى جمجمته؛ ومنهم المأمور الحارثي: كاهن بني الحارت بن كعب، ومن أشهر الكهانات: طريفة الكاهنة: وكانت باليمين وفاطمة الخثعمية: وكانت بمكة، والزرقاء بنت زهير، وزبراء كاهنة بني رئام. وكان الكهان في أحاديثهم يعتمدون غالباً إلى سجع مصطنع، وكانتا كانوا يقصدون زيادة التأثير في السامعين، وإلهاءهم عن التتبع لما يلقى إليهم من الأخبار التي كانت في منتهي الغرابة والعجب. وما ورد لهم ما يروى أن حبراً أبا امرئ القيس رق لبني أسد، فأقبلوا حتى إذا كان على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم وهو عوف بن ربيعة فقال لبني أسد: "يا عبادي! قالوا: ليك ربنا، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيئ نفس جاشية، فركبوا كل صعب وذلول، مما أشرف لهم النهار حتى أتوا على عسكر حجر فهجموا على قيته وقتلوه". ويروى أن شفّاً وسطيحاً اتفقا على تعبير رؤيا رأها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب، فأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متلكف يبعث على التردد في تصديقه، إذ قال: "أحلف بما بين الحرتين من حنش، وليملكن ما بين أبين إلى جرش". وقال شق: "أحلف بين الحرتين من إنسان ليهبطن أرضكم السودان، وليملكن ما بين أبين إلى نجران". ويقال إن زبراء أندشت قومها غارة عليهم، فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق، إن شجر الوادي ليأدوا ختلاً، ويحرق أنياباً عصلاً، وإن صخر الطود لينذر ثلاً، ومن المؤكد أن الكهان كانوا يسجعون في كلامهم بمثل هذا السجع بدليل أنهم لما سمعوا القرآن ظنوه من هذا القبيل، فرد الله زعمهم بقوله تعالى: { فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنَعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ } []. و قوله تعالى: { وَمَا هُوَ بِقُوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ، وَلَا بِقُوْلٍ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } [] ، وظاهر من نماذج نثرهم أن الكهان كانوا يستعملون السجع المتلكف العامض، لكي تتحير الأذهان في فهم المقصود منها وأغلب الظن، بل يكاد يكون من المؤكد أنهم لم يكونوا يدركون حقيقة ما يقولون فكانوا يأتون بالألفاظ. ويرصفونها ببعضها بجانب بعض بدون وعي تام لمعانيها، ما دام السجع موجوداً فيها، ويكتنفهم الغموض والإيهام، مكتفين بالإيماء والتلميح، متذمرين من حال مخاطبיהם النفسية ما يساعدهم على ذلك، كما يفعل ضاربو الرمل والحسى بينما الآن. ومن أشهر المتكلمين في الجاهلية: سطيح الذئبي ، وعوف بن ربيعة الأسيدي ، المشهور باسم عزى سلمة، والكهان عند العرب الجاهليين طائفة ذات قداسة دينية، شأنهم شأن الحكام في المناورات. وكانوا يزعمون الاطلاع على الغيب، وأن لكل منهم رئياً - أي صاحباً من الجن - يعرف الكاهن عن طريقه ما سيكون من أمور. وكان الناس يتواجدون على هؤلاء الكهان من مختلف الجهات فيحكمونهم في منازعاتهم، ويستشرونهم في أمورهم الخاصة وما يزمعونه من أعمال، وكانوا يستخدمون في أحکامهم وأقوالهم ضرباً من النثر المسجوع عرفوا به، ويلاحظ في نصوص الكهان أنها تحمل طابع التكليف الشديد في سجعها ولها لا يطمأن إليها كلها، فربما شاب بعضها الوضع والنحل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، ومن خصائص ألسجع الكهان أنها - في جملتها - كلام عام، لا يرشد السامع إلى حقائق جلية، وإنما يضعه في الغموض والإيهام، وقصر الجمل لإلهاء السامع عن تتبع ما يلقى إليه من الأخبار العربية، وجعله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، وتأنويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه. موقف القرآن الكريم من الكهان ذم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الذهاب إلى الكهان ونفي القرآن الكريم صفة الكهانة عن الرسول صلى الله عليه وسلم